

القيمة اللسانية في الظواهر الإعرابية

د. بلشير لحسن

جامعة جيلالي ليابس / سيكي بلعباس

اللغة خلقتها طبيعة الاجتماع في صور تقليدية ، ذلك ما أثبتته الدراسات اللغوية الحديثة بحيث اعتبر بعض علماء اللسان أن اللغة ظاهرة بسلوكولوجية اجتماعية ثقافية مكتسبة ، يتميز بها كل مجتمع إنساني ، وهي تتألف من مجموعة رموز صوتية لغوية لها دلالتها اكتسبت عن طريق الاختبار نتيجة معاني مقررّة في الذهن وبهذا النظام الرمزي الصوتي تستطيع الجماعة اللغوية المنتمية إلى بيئة لغوية متجانسة أن تتفاهم وتتفاعل من أجل تطوير النتاج الفكري الإنساني ، وحفاظا على استمرارية التقدم الحضاري للمجتمع الذي تنسب إليه ، وقد أثبتت الدراسات اللغوية الحديثة أن اللغة ظاهرة اجتماعية يتميز بها كل مجتمع إنساني وهي تتطور بتطوره ، وتنمو نمو حضارته كما أن لكل لغة مقدراتها وعبريتها على التعبير لا نجد لها لغة أخرى وهذا يعود إلى طبيعة الحضارات الإنسانية الراقية والحياة الفنية ... (1)

تتطور اللغة نتيجة أسباب كثيرة ومتنوعة وهناك كتب عديدة قديمة وحديثة عرضت لموضوع تطور اللغات ، غير أن العرب نظروا إلى لغتهم على أنها أفضل اللغات جميعا ، فالعربية كما يعبر عنها الباحثون هي لغة القرآن و"مرآة الشعب ومستودع تراثه الفكري وديوان أدبه وسجل مطامحه وأحلامه ، ومفتاح أفكاره وعواطفه ، وهي فوق هذا وذالك رمز كيانه الروحي وعنوان وحدته وتقدمه وخزانة عاداته وتقاليده (2).

وعن أفضلية اللغة العربية عن سائر اللغات تحدث ابن فارس عارضا للأسباب التي يراها وأهمها أنها لغة الوحي الكريم قال تعالى (وإنه لتنزيل رب العلمين ، نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنشرين بلسان عربي مبين) (سورة الشعراء الآية 190) وقال أيضا : "خلق الإنسان علمه البيان" (سورة الرحمن الآية 1) فقد خص جلّ شأه اللسان العربي بالبيان ووصفه بأبلغ ما يوصف به الكلام ، ويمضي في بيان بقية الأسباب التي يراها لأفضلية العربية فيذكر أن للعربية الاستعارة والتمثيل والقلب والتقديم والتأخير والإدغام وما بها من الألفاظ المترادفة ما لا يوجد في لغة أخرى . (3)

ويرى الثعالبي أن " العربية خير اللغات والألسنة " وجعل السبب في ذلك نزول القرآن الكريم بها " فكيف وأيسر ما خصّها الله عز وجلّ من دروب الممادح يكل أقلام الكتبة، ويتعب أنامل الحسبة، ولما شرفها الله عزّ اسمه وعظمها، ورفع خطرهما وكرمها، وأوحى بها إلى خير خلقه، وجعلها لسان أمينه على وحيه وخلفائه في أرضه وأراد بقاها ودوامها حتى تكون في هذه العاجلة لخير عبادة، وفي تلك الآجلة لساكني دار ثوابه، قيّض لها حفظة وخزنة من خواص الناس وأعيان الفضل وأنجم الأرض فتسوا في خدمتها الشهوات وجابوا الفلوات...". (4)

فاللغة العربية لها نظامها الصوتي والصرفي والنحوي والتركيبي، ولألفاظها دلالات خاصة تتفرد بها عن سائر لغات العالم ولا يمكن (أي حال من الأحوال تحديد الزمن الذي نضجت فيه اللغة العربية واتخذت شكلها النهائي في العصر الجاهلي وكان ذلك نتيجة قطع مراحل طويلة من النمو والتطور.

فمعرفة اللغة تفتح للإنسان آفاقاً بعيدة رحبة من التجارب والمعارف والأفكار يطلع من خلالها على عادات وتقاليده وأساليب وأذواق وتراث أمته الفكري والحضاري والاجتماعي وبهذا الإطلاع على تراث أمته المدون يضم تجارب الماضين إلى التجارب والأفكار التي يكتسبها فتكون هذه كلها قاعدة أساسية لإبداعات جديدة نامية ينقلها بواسطة اللغة إلى أجيال المستقبل فاللغة إذن هي ملك الأمة لا الأفراد، من هنا كان لابد أن تضبط أحكامها وقواعدها لضمان استمراريتها لأن اللغة هي الوسيلة الرئيسة للتقدم الحضاري البشري... (5)

كانت هناك بعض الفوارق في لهجات القبائل في الجزيرة العربية، لكن هذه الفوارق لم تكن عائقاً تحول دون التقاهم حتى بين القبائل المتباعدة في السكن، وأغلب هذه الفوارق ترجع إلى طبيعة اختلاف الأصوات والقوالب والمفردات وقد لفت أنظار النحاة واللغويين الذين تعتمد على أخبارهم في معارفنا عن اللهجات العربية ما قدموه لنا من جهد في هذا المضمار. (6)

كانت لهجة قريش الأكثر استعمالاً وانتشاراً من غيرها في العصر الجاهلي، لأنها لهجة عذبة فصيحة سهلة على اللسان، مهذبة الألفاظ، أخذت من اللهجات المجاورة لها أفصح ما لديها من المنطق الجزل والأسلوب المؤنق، وقد حرص الناس على الإقبال عليها واتخاذها لغة شئونهم العامة والخاصة، وهذا بفضل ما أتيح لقريش من النفوذ الديني

والسياسي والاقتصادي ، والكلمة المسموعة مما مهد لها أن تكون فيما بعد لغة القرآن الكريم ، والحديث النبوي الشريف والأدب والشعر وفن الكلام .

التمايز الإعرابي

يعرف الدكتور : رمضان عبد التواب اللحن بقوله " هو مخالفة العربية الفصحى في الأصوات ، أو في الصيغ ، أو في تركيب الجملة وحركات الإعراب ، أو في دلالة الألفاظ ، وهذا ما كان يعنيه كل من ألف في لحن العامة من القدامى والمحدثين وذلك ظاهر بوضوح من الأمثلة التي عالجوها في كتبهم (7)

والقصد من اللحن هو الخطأ في الإعراب وقد ظهر هذا النوع من الذيوع في عهد النبي (صلى الله عليه وسلم) فقد روي أن رجلاً لحن بحضرته فقال: " ارشدوا أخاكم فقد ضل " وأن أبا الأسود الدؤلي دخل يوماً إلى منزله فقالت له بعض بناته:

ما أحسن السماء (يرفع أحسن) فقال : أي بنية نجومها ، فقالت: إني لم أرد أي شيء منها أحسن ، وإنما تعجبت من حسنها ، فقال : إذا قولي : ما أحسن السماء (يفتح أحسن).

وحينئذ وضع باب التعجب في علم النحو ، كما رويت أخبار كثيرة عن شيوع اللحن ، وكان ذلك سبباً جوهرياً على وضع علم الإعراب

وتحدث ابن فارس عن ظاهرة الإعراب قائلاً : ((من العلوم الجليلة التي خصت بها العرب الإعراب الذي هو الفارق بين المعاني المتكافئة في اللفظ وبه يعرف الخبر الذي هو أصل الكلام ولولاه ما ميّز فاعل من مفعول ولا مضاف من منوع ولا تعجب من استفهام ولا مصدر من مصدر ولا نعت من تأكيد)) . (8)

أما عبد القاهر الجرجاني فعندما نجده يتحدث عن النحو ، إنما يقصد بذلك الحركات الإعرابية التي تلحق أواخر الكلمات العربية من رفع ونصب وجر لأنها تفرّق بين المعاني المتكافئة في اللفظ وهو في ذلك يقول :

((أنه المعيار الذي لا يتبين نقصان كلام ورجحانه حتى يعرض عليه والمقياس الذي يعرف صحيح من سقيم حتى يرجع إليه)) . (9)

وتكون هذه الحركات إما عارضة لمادة الكلمة ومبناها أو عارضة لآخرها وتسمى الأولى حركات المباني والثانية حركات الإعراب لأنها تعرب عن مراد المتكلم بموقع الكلمة من الجملة.

كما ذكر علماء النحو أنواعا أخرى من الإعراب، كالإعراب اللفظي الذي يحدث في أواخر الكلمات، والإعراب التقديري الذي لا تظهر فيه الحركات على أواخر الكلمات بسبب ثقل أو تعذر وهو خاص بالكلمات المعتلة، والإعراب المحلي : ولا يكون ظاهرا أو مقننا وإنما يحتمل في الجمل والكلمات المبنيّة.

فالإعراب إذن عند علماء النحو هو ذلك التغيير الذي يلحق أواخر الكلمات العربية من رفع ونصب وجر وجزم، فيفترق بين المعاني المتكافئة في اللفظ.

هذا فيما يخص حركات الإعراب التي تظهر فوق الكلمات المفردة أما الجمل فهي بعيدة عن الإعراب، لأنها مركبة تركيبا إسناديا يستحيل أن يظهر عليها أو يقدر بمجموعها حركات الإعراب، والأصل في الإعراب أن يعود بالضرورة للمفرد، وأن الجملة إذا جاز تقديرها بالمفرد أعطيت إعرابه تقديرا لأنها حلت محله وقامت مقامه واستخدمت في موضعه، يقول أبو حيان:

"أصل الجملة ألا يكون لها موضع من الإعراب وإذا كان لها موضع من الإعراب قدرت بالمفرد." (10)

ويرى علماء النحو أن الجملة من حيث الإعراب تنقسم إلى قسمين:

- 1 جمل لها محل من الإعراب.
 - 2 وجمل لا محل لها من الإعراب.
- واتخذوا مقياسا موحي في إعراب هذه الجمل على اختلافها، وإضافة إلى ذلك رأوا أن الجملة إذا جاءت مؤدية معنى نحويا يؤديه المفرد كان لها إعراب ذلك المفرد نحو: (البحر يضطرب) فيضطرب جملة قدرت بمفرد مضطرب في محل رفع خبر المبتدأ.
- أما الجملة إذا لم تؤد ما يؤديه المفرد فلا محل لها من الإعراب كونها لم تستخدم في موضع المفرد . نحو : زيد قائم جملة لا محل لها من الإعراب لأنها لا تحل محل المفرد. (11)

ولما تطورت العلوم العربية أضحت الإعراب أقوى عناصرها وأبرز خصائصها، بل سر جمالها وأمسّت قوائمه هي العاصمة من الزلل.

فالعرب ورثوا لغتهم معربة من ميراث اللغة الأولى أم لغتنا العربية حفظتها لنا البداوة وحفظها بعد حاملها عن فساد اللسان بالعزلة وعدم امتزاجهم بالأمم الأخرى. فقد اهتدي علماء اللغة العربية إلى مصادر أساسية في جمع المادة اللغوية المدونة أهمها القرآن الكريم وما دون من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما دونه الرواة من قصائد الشعر الجاهلي والإسلامي، والأمثال التي كانت ملء السمع والبصر حيث أخذ الناس يعنون بها ويجمعونها منذ العصر الجاهلي.

أما اللغة غير المدونة فتتمثل في كلام العرب الفصحاء، وما كان يسمعه النحاة في حلقات العلم، وفي الأسواق العامة، وما كان يقدمه الرواة من قصائد شعرية في مناسبات خاصة في بلاطات الأمراء.

هذه المصادر هي مجموعة لغوية غنية بالظواهر، حافلة بالقواعد والأصول النحوية. (12) وكان لظهور النحو في الوقت المناسب أثر كبير في الحفاظ على سلامة وعذوبة اللغة، وكان لها بمثابة الحصن المنيع والدرع الواقي من الفساد وذيق اللحن. لأن العرب نطقوا بلغتهم سليقة وسجية ولم يكونوا بحاجة في وقت من الأوقات إلى علم يضبطون به الألسنة فظلت العربية على سنتهم صافية غير مشوبة، إلا أن تم اختلاطهم بغيرهم من العناصر غير العربية ففشي الغيورون على اللغة أن تصاب بما يضعفها ويقضي على مقوماتها، ففكروا في وضع هذا العلم لصون اللسان من الخطأ.

ذيق اللحن

فبعد اتساع حدود الدولة العربية، شاع اللحن والتحريف وجرى على ألسنة العجم، ثم على ألسنة العرب المتحضرين الأمر الذي دفع بعلماء العربية إلى التفكير في وضع ضوابط وقواعد يهتدي بها العرب وغيرهم من الأجناس إلى ضبط الكلام العربي، وهذه الضوابط في الكلام العربي أو كما يطلق عليها عادة في الدراسات النحوية، ظاهرة الإعراب غير (13)

مستحدثة في العربية الفصحى، إذ أن لها جذورا عميقة موطنة في التاريخ، فالعربية التي قيل بها الشعر الجاهلي فالإعراب فيه ضارب إطنابه مما لا يدع مجالاً للشك أن العرب قد ورثوا لغتهم معربة وهذا الإعراب ظل ينمو ويتزعرع شيئا فشيئا حتى اكتمل ونضج وتمثل هذا النضج في أشعار الجاهلين (14)

ومن المؤكد أن تسرب اللحن قد اقتصر في بداية الأمر على ألسنة العرب المستعربين حين اختلطوا بغيرهم من العرب في الحواضر، فالأعاجم كان يثقل عليهم إخراج الحروف الحلقية وحروف الإطباق، حتى شكك الناس من فساد الألسنة، ولم يكن بد من أن يتأثر العرب بأولئك الأعاجم بالرغم من وراثتهم لعربيتهم معربة، وقرأوا القرآن معربا وتناولوا أحاديث رسولهم صلى الله عليه وسلم معربة

لكن الإعراب في البداية بمقتضى النشأة والفطرة ظلوا في مناعة تامة من هذا اللحن، حيث كانوا مقصد الرواة والعلماء عندما اشتد عليهم الأمر، وتجدر الإشارة هنا إلى تلك الدراسات التحليلية الوصفية الشاملة للغة العربية التي قام بها علماء العرب في الوقت الذي شاع فيه اللحن، وقد أفلحوا في الوصول إلى تلك الغاية التي وضعوها نصب أعيونهم فحافظوا على سلامة اللغة العربية ونقاوتها، وجنبوها خطر تقشي اللحن فيها بعدما كادت أن تفقد عذوبتها وجوهرها، فكان طبيعيا وإحالة كذلك التفكير في وضع ضوابط ومبادئ عامة يهتدي بها العرب المستعربون في ضبط الكلام العربي لتجنب تقشي اللحن، (15)

أبو الأسود الدؤلي والتنظير اللغوي

ويعود الفضل في ذلك إلى علماء أجلاء، ومن أبرزهم أبو الأسود الدؤلي الذي يعتبر ويدون منازع أب الدراسات اللغوية العربية على الإطلاق بحيث كان له فضل السبق لتعميد اللغة، فحين بدأ أبو الأسود الدؤلي بملاحظة الظواهر اللغوية كان في نفسه أمران: أولهما ما قرأ في نفسه من أصالة وفطرة، وثانيهما ما طبع عليه من قراءة القرآن على يد علي بن أبي طالب، فأبو الأسود عربي فصيح، غني بليان العربية الأصيلة منذ نعومته، ونذب إلى عمل عظيم يهيئه إلى ملاحظة الظواهر الكلامية التركيبية في لغة العرب وهو ضبط القرآن

الكريم، ذخّر لغوي غني بالظواهر، وقد ساعده في عمله الجليل ما وصف به من حدة الذكاء والفطنة. (16)

ذلك أن الخط العربي يشتقر إلى إعجام وحركات، والإعجام هو إزالة العجمي وتعني به اللبس والإيهام عن الحرف المشتبه به بتقيطه ففي العربية حروف لها صورة واحدة، كالباء والتاء والثاء والجيم والحاء والخاء والسين والشين والعين والغين والصاد والضاد والطاء والظاء... الخ، فإذا لم تعجم لا نستطيع قراءتها قراءة صحيحة.

وقد اتخذ أبو الأسود الذؤلي كاتباً فطناً من بني عبد القيس وقال له :

((خذ المصحف وصبغاً يخالف لون المداد فإذا رأيتني فتحت شفطي بالحرف فانقط واحدة فوقه، وإذا كسرتيها فانقط واحدة أسفله، وإذا ضممتيها فجعل النقطة بين يدي الحرف، فإن تبعت شيئاً من هذه الحركات غنة فانقط نقطتين، وأبدأ أبو الأسود القراءة حتى أتى على آخر المصحف، والكاتب يضع النقط بمداد يخالف لون المداد الذي كتبت به الآيات.)) وضع أب الأسود الذؤلي أبواباً من النحو وتكلم في مسائل القياس والعلل والعوامل وهو بهذا الصنيع « كان أول من أسس العربية، وفتح بابها وأنهج سبيلها، ووضع قياسها... ووضع باب الفاعل والمفعول والمضاف وحروف الجر والرفع والنصب والجرم ». إن هذا العمل الذي قام به أبو الأسود لم يكن إلا مشروعاً تمهيدياً لما جاء بعد، لكن ينبغي أن نعترف اعترافاً موضوعياً بأن هذه الخطوة كانت بحق رائدة ليست للدرس النحوي فقط، بل لكل الدراسات اللغوية على اختلاف أنواعها، ولم يذكر هذا النحو العربي الأول التركيب اللغوي لكنه ذكر حسب المستوى التقليدي أو الشكلي لتلك التراكمات القليلة المنسوبة إلى هذه الخطوة الأولى. على الرغم من عدم ذكر البنى العميقة بكمية مباشرة فإننا نستخلص ذلك من خلال الأشكال والظواهر للبنى السطحية (17)

فعندما انتشر اللحن بين الموالي بشكل يثير التخوف على مصير اللغة حرّ ذلك في نفسيته حين نراه يعبر عن هذا الموقف بقوله : هؤلاء الموالي قد رغبوا في الإسلام، ودخلوا فيه فصاروا لنا إخوة فلو علمناهم الكلام (18)

فهو لا يقصد تعليمهم المعاني وإنما يقصد أن يتعلموا طرق العرب في التعبير وحقيقة القول أن يتعلموا أسلوب العربية ونحوها، وتم وضع ضوابط لقواعد العربية نحوها وصرفها، وسار

تلاميذ ته بعده على سنته في تتبع الظواهر اللغوية في القرآن، وجمعوا إليه ما كانت تطلع به البيئة القصصية من ظواهر أخرى (19)

نشأ النحو العربي في البصرة على مراحل، المرحلة الأولى تمت على يد أبي الأسود الدؤلي كما سبق الذكر الذي كان همه ضبط قراءة القرآن الكريم الذي لم يكن في عصره معجماً ولا منقوشاً خشية عليه فهو دستور الإسلام ودليل العبادات والمعاملات وأدب السلوك وعلاقات الأفراد والجماعات في ماضيها وحاضرها ومستقبلها ثم هو نص موثوق بكل تفاصيله بدءاً بمخارج حروفه إلى علامات إعرابه إلى ألفاظ كلماته إلى تراكييب جملته إلى أماكن الوقف من خلال هذه الجمل، لذلك كان القرآن معجزة الإسلام الكبرى ومن هنا كان الخوف عليه من عوادي الفتنة، وحيناً من مخاطر اللحن (20)

المرحلة الخيلية

أما المرحلة الثانية فقد تمت على يد الخليل ابن أحمد القراهدي الذي رأى أن الخط العربي أصبح مثقلاً بعند كبير من النقط، بعضها لإعجام الحرف وبعضها للحركة هذا الأمر عسر القراءة وعقدها، فأدخل على الخط العربي ما كان يسميه بأبعاض الحروف "فاقتطع من الألف بعضها وجعله رمزاً للفتحة، واقتطع بعض الياء وجعله رمزاً للكسرة، وصغر الواو وجعلها رمزاً للضممة" وبهذا العمل قلل الخليل من عدد النقط في الخط العربي واستعاض عنها برموز يسهل تمييزها (21)

وفي مرحلة متأخرة من عهد الخليل كان جيل من القراء قد مات، فكثرت الخطأ وعم التصحيف عند قراءة حرفين متشابهين في الصورة كالباء والتاء، والعين والغين، والحاء والخاء، والسين والشين وتقسمت موجة من اللحن في العراق، ويابعا من الحجاج قام رجل اسمه نصر بن عاصم بإعجام الحروف العربية، وليس بالمستبعد أن يكون أبو الأسود الدؤلي هو الذي أعجم الحروف المتشابهة في صورها من قبل (22)

ثم جاءت بعد ذلك مرحلة وضع العلامات والرموز لضوابط القراءة وتمثل في الشدة والمدّ والسكون وعلامة الوصل ففي الكلمات العربية حروف مشددة كما في "شَدَّ، مَدَّ، حَبَّ

“وهناك ألف ممدودة كما في آمن، وهناك مقاطع في الكلمة ساكنة إذن، هذه الرموز تهدف إلى تيسير وضبط القراءة وتتقي التنازلات والمتأخرات حتى وصلت إلينا بصورها الحالية. ومن المسائل الهامة في الخط العربي رمز الهمزة فقد ظل العرب مدة غير يسيرة وليس لهم في خطهم رمز أو صورة لهذا الحرف الكثير الورد في أبنية الكلمات العربية. كانوا يرمزون إليه بدائرتين صغيرتين تكتب الواحدة فوق الأخرى، أو بدائرة كبيرة تكتب بمداد مخالف، ورمز إليها الخليل برأس عين مصغر، وخوها من الاكتباس كتب رأس العين على حرف يجانس حركته، ذلك أن الخط العربي نقطا للإعجام، ورموزا للحركات وإشارات لضوابط القراءة.” (23)

العوامل المؤثرة في الدراسة اللغوية المبكرة

أما الدوافع الحقيقية لوضع أحكام اللغة العربية فيمكن حصرها في النقاط التالية :

— الدافع الديني : قيل أن اللحن تسرب إلى العربية، فالإسلام أفضل بظله أمما غير عربية اعتنقت الإسلام دينا، ونتيجة ذلك فقد العرب شيئا من السليقة اللغوية الفطرية، قد يتغاضى الناس عن هفوات لغوية ترتكب في النثر أو الشعر، ولا يغفرون زلة من يخطئ في قراءة القرآن الكريم دستور الإسلام ودليل العبادات والمعاملات، وهو نص موثق بكل تقاصيله بدءا بمخارج حروفه إلى علامات إعرابه، وتراكيب جملة ومن هنا كان الخوف عليه حينما من دواعي الفتنة وحينما على مخاطر اللحن والتحريف، ثم أن القرآن لم ينزل بلهجة عربية فصيحة واحدة، بل نزل بمعظم لهجات القبائل العربية ذات الفصاحة والسلامة، وعندما وقعت بين قراء الأمصار مشادات في القراءات القرآنية فرع عثمان بن عفان إلى ثقات من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين بقوا بعد حروب الردة وأمرهم أن يجمعوا ما تفرق من الصحف والعظام والخاف وسعف النخل عند المسلمين، وكان أكثر ذلك في بيت حفصة بنت عمر واستكتبهم مصحفا سمي باسمه ونسب إليه فوزع ستا من نسخته على الأمصار، وابطل ما عداها مما كان في أيدي الناس، وكان لهذا العمل أثر بالغ الأهمية في ثقافة العرب الدينية، ثم في نشأة النحو العربي فيما بعد (24)

وكان الخط العربي الذي كتب به مصحف عثمان لا يعرف النقط ولا الشكل ولهذا السبب لم يكن في مأمن من التصحيف والتحريف . (25)

- الدافع التعليمي: حرص الأعاجم والموالي على تعلم اللغة العربية ليتسنى لهم قراءة كلام الله فالتعلم فرض على كل مسلم، كيف يتسنى للأعجمي وغيره من يتقن العربية أن يتعلم لغة لا أحكام لها ولا قواعد، علما أن الكتابة كانت مقتصرة على الحروف دون إعجام وتقيد، أما أمر الحركات فيترك للقارئ وفي هذا صعوبة كلية ومزالق خطيرة . (26)

فاقتار الخط العربي إلى الإعجام والحركات كان من الدوافع الأساسية لوضع ضوابط وقواعد للقراءة الصحيحة.

- الدافع القومي: وجد العرب أنفسهم وازئين لحضارة الروم والفرس والشعوب الآرامية، ولثقافات ذات تنوع وعمق ولم يكن للعرب مثل هذه الحضارات ولا تلك الثقافات، فكان لابد على العرب أن يسلكوا الطريق التي تليق بأمة قائدة وإنشاء ثقافة قومية يجعلون بها الرسالة التي أغدقت عليهم نعمة الفتح والغلبة رائدة، والقرآن هو وعاء هذه الرسالة، وليس الأمر هنا المحافظة على النص القرآني كما مر بنا في العامل الديني وإنما الأمر أن يكون القرآن محور الجهد العربي، ومن هنا نشأت عدة علوم في التفسير واللغة والأدب، فالقرآن نص أدبي معجز يشتمل على الحقيقة والمجاز. (27)

ولهذه الأقوام التي أصبحت خاضعة لسلطان العرب كتبهم المقدسة، وهذه الكتب أحكام وقواعد لغوية، فلماذا لا يكون للغة العرب التي يقدسونها أحكامها وقواعدها ؟ وهكذا بدأت علوم اللغة العربية تتبلور وراح الفيورون عليها يعملون على تنظيمها وتقعيدها على أسس منطقية فلسفية. (28)

- الدافع السياسي : دخل أبناء الأمم المغلوبة الإسلام طوعا أو كرها ودانوا بالطاعة للدولة الإسلامية الفتية التي سرعان ما انقضت فيها عهد الخلفاء الراشدين بكل ما يحمله من أخوة إسلامية، وجاء الأمويون بسياسة التفرقة والعصبية بحسب الأعراق، فانقسم المسلمون إلى عرب وموالي، وكان لسان العربي لغة القرآن ولغة الدولة وهي لغة في يدهم للتفوق والتسلط، أما الموالي فقد نشئوا في حضن العرب فاستظلوا بظل الفصاحة والسليقة العربية، وهم في حاجة إلى تعلم لغة إخوانهم في الدين والدولة. (29)

ولم يكن علماء اللغة الأوائل نقضوا أيديهم بعد من بعض التصنيفات النحوية الأولية كإقسام الكلام وحركات الإعراب ونحوها حتى وجد الموالي ضالتهم المنشودة فتعلموا اللغة والدين والدولة، وشاركوا في صناعة النحو وحولوه من منهج علمي إلى منهج تعليمي (30). وكانت النتيجة أن دخل الموالي في زمرة المواطنين بعدما كانوا غريباء كَيْفَ النحاة تفكيرهم النحوي بحسب كيفيات تلك الظروف فتحول النحو إلى أداة تعليم خدمة للغة القرآن من جهة وإنصافاً لبني جلدتهم من جهة أخرى

. آراء وجهود علماء العرب

لم يتفق علماء اللغة والنحاة على تعريف واحد للنحو فكل فريق له تعريفه الخاص، واختلاف هذه التعاريف يرجع بالدرجة الأولى إلى تحديد دائرة القواعد النحوية فمن العلماء من يرى أنها تشتمل على أساليب اللغة من جميع نواحيها ومنهم من يذهب غير هذا بقصرها على أواخر الكلمات ومعرفة بنيتها واشتقاقها وتصريفها. فعلم النحو هو فرع من علوم العربية، وقد اقتضت طبيعة التدرج والتعمق في البحث أن يستقل النحو عن فروع العربية الأخرى وأن يتفرد به العلماء، وإن تظهر فيه مؤلفات مستقلة. ولعل خير تعريف للنحو ما أورده ابن جني في مؤلفه الخصائص إذ يقول: النحو هو انتحاء سمت كلام العرب، في تصرفه من إعراب وغيره، كالتثنية والجمع، والتحقيق والتكسير والإضافة، والنسب والتركيب وغير ذلك، ليلحق من ليس من أهل اللغة العربية بأهلها في الفصاحة فينطق بها وإن لم يكن منهم، وإن شذ بعضهم عنها ردّه به إليها(31) وهو في الأصل مصدر شائع أي نحوت نحوا، كقولك قصدت قصدا ثم خص به انتحاء هذا القبيل من العلم، وهو بهذا النص قد سبق علماء عصره وجاء بما وصلت إليه الدراسات اللغوية الحديثة التي تجمع بين علم النظم وعلم التركيب وعلم الصيغ الصرفية تحت باب واحد هو باب النحو. فعلم التركيب كما سبق الإشارة إليه في المبحث السابق فهو (يعني أول كل شيء بترتيب الكلمات في جمل أي أنه يدرس الطرق التي تتألف بها الجمل من الكلمات (32) كما يهتم بأمور أخرى لا تقل أهمية عن تركيب الكلمات وتأليفها في جمل، ومنها البحث في قوانين المطابقة، أو عدمها من حيث العدد ومن حيث النوع، والبحث في الإعراب وقوانينه.

فالنحو عند ابن جني على هذا المفهوم هو محاكاة العرب في طريقة كلامهم تجنباً للحن،
 وتمكيناً للمستعرب في أن يكون كالعربي في فصاحته وسلامة لفته عند التعبير .
 ولاشك أن علم النحو إنما هو طائفة من خصائص اللغة العربية وليست الناحية
 الإعرابية والصرفية هي كل خصائص اللغة ولكنها ناحية لها أهميتها في اللغة العربية.
 إذا انطلقنا من قول الجرجاني : ((أن الألفاظ مغلقة على معانيها حتى يكون النحو هو
 المستخرج لها وأنه المعيار الذي لا يتبين نقصان كلام ورجحانه حتى يعرض عليه، والمقياس
 الذي لا يعرف صحيح من سقيم حتى يرجع إليه)) . (33)
 كان من الصواب أن نقول أن الكلمات قبل التركيب لا توصف ببناء ولا إعراب إذ
 لا تستحق هذا الحكم إلا وهي في تركيب وجد موجب الإعراب، ويعني النحويون بموجب
 الإعراب المعاني المتعاقبة على الاسم الواحد كالفاعلية والمفعولية والإضافة وهي معاني نحوية
 لا معجمية، لذا نجد أن النحاة عنوا عناية فائقة بالعلامات الإعرابية إلى أن سموها علم النحو
 يعلم الإعراب لما رأوا أنها تعين على إدراك هذه العلاقات، وتقتصر بين المعاني النحوية ومن تمّ
 جعلوا الإعراب المنطلق للدرس النحوي .
 وأوضحوا أن المبتدأ والخبر لو لم يجرد الإسناد لكان في حكم الأصوات التي ينهق
 بها بحيث لو فقدنا الترابط بين كلمتين وجردتا من العوامل لا للإسناد لصارتا لفظتين
 منفصلتين كل منهما على حدى ولا نجد المعنى النحوي وبالتالي لا تظهر العلامة الإعرابية في
 آخر الكلمة ولأن العلامة الإعرابية تكون علامة للمعنى وهناك من عاب ربط المعاني
 النحوية بالعلامات الإعرابية، فالكلام لم يعرب للدلالة على المعاني والفرق بين بعضها وبعض
 فلا نجد في كلامهم أسماء متفقة في الإعراب ومختلفة المعاني.
 والواقع أن العلامات الإعرابية وحدها لا تعين على بيان المعنى النحوي، بل لا بدّ من
 قرائن أخرى متضافرة في بيان ذلك المعنى في الإرشاد إلى العلاقات التي تحكم الكلمات في
 تركيب ما، فالعلاقات بين الكلمات لها صلتها المحكمة بموضعها في الكلام.
 وهناك من يذهب إلى القول بأن ((للعرب الإعراب الذي جعله الله وشياً لكلامها، وحلية
 لنظامها، وفارقاً في بعض الأحوال بين الكلامين المتكافئين والمعنيين المختلفين: كالفاعل

والمفعول، ولا يفرق بينهما، إذا تساوت حالهما في إمكان أن يكون الفعل لكل واحد منهما إلا الإعراب)) (34)

ولو أن قاتلاً قال : (هذا قاتل أخي)، بالتثوين، وقال آخر: (هذا قاتل أخي)، بالإضافة لدلّ بالتثوين على أنه لم يقتله، ويحذف التثوين على أنه قتله .

وإذا قلت : هذا كريم أحسن منه عالم، فإذا رفعت كريماً وعالمًا كان المراد شخصين اثنين أحدهما عالم والآخر كريم، ولكن العالم أحسن منه الكريم، وإذا نصبتهما كانا شخصاً واحداً عالماً وكريماً، ولكن في كرمه أحسن منه في علمه.

أما في قولهم : (كم كتاب قرأت) فإذا جررت كتاباً أردت الإخبار بكثرة ما قرأت من الكتب، وإذا نصبت كنت تريد الاستفهام عن عدد الكتب التي قرأتها.

فعلا الإعراب من خصائص العربية، وأشدّها وضوحاً والفارق الوحيد بين المعاني المتكافئة . فقد عبر اللغويون القدامى عن هذه الظاهرة بأساليب متنوعة تتجه كلها نحو حقيقة واحدة ونستطيع أن نجمل ذلك في قول ابن فارس : " فأما الإعراب فبه تميّز المعاني ويوقف على أغراض المتكلمين وذلك أن قاتلاً لو قال : "ما أحسن زيد" غير معرب، أو ضرب عمر زيد غير معرب، لم يوقف على مراده . فإن قال : "ما أحسن زيدا" أو "ما أحسن زيد" أو "ما أحسن زيد" أيان بالإعراب عن المعنى الذي أراد . (35)

فقد اختلف المراد فيهما ذكرناه وهذا باختلاف الحركات الإعرابية مع العلم أن الجمل المذكورة لو يطرأ عليها شيء من التغيير من حيث تركيبها وتنسيقها غير علامات الإعراب، لكن المعنى التركيبي والدلالي قد تغيّر بتغيّر حركات الإعراب، فإذا أهمل الإعراب في الجمل اشتبه على السامع فهمها لاحتمالها معان لا يميزها إلا الإعراب .

العلاقة الإعرابية بين العامية بالفصحى

وحين تناولنا بالدراسة الأمثال الشعبية وقفنا على نفس الخصائص والمميزات التي عرفتها اللغة العربية قبل إخضاعها لقوانين النحو وتقعيدها فلا يزال المثل الشعبي ينطق به بنفس الطريقة التي نطقت به العرب قبل الإسلام دون تقيدتها بضوابط لغوية وإنما كان ذلك نتيجة سليقة وفطرة وآتى لسكان البادية بمعرفة قواعد النحو كعلم من العلوم ويتضح لنا ذلك حين سنلّ أعرابي : أتجرّ فلسطين ؟ فقال : إنني إذا لرجل قوي، ولما قيل له : أتهمز

إسرائيل ؟ فقال : إني إذا لرجل ، سوء فهم هذا الإعرابي الجر والهمز بمعناهما اللغوي . و لم يفكر في إعراب الكلمة وإنما حاول معرفة المعنى الذي تؤديه ، هذا ما نجده في الأمثال الشعبية المتداولة بين الناس تلفظ كما تسمع دون التفكير في علامات الإعراب ، فأسنتهم تجري بلا تعمد ولا كلفة على هذا النظام الذي لا يسلم من الخطأ فقد يكثر ويقل بحسب مراتبهم ودرجة البيئة من الخطأ والغلط التي يتمرنون فيها . إن عامة الناس في الأقطار العربية اتخذت من التعبير العامي لغة موازية للفصحى نتيجة عوامل وظروف لا مجال للتعقق فيها ، فكان التمرن على هذا النوع من التعبير متجددا راسخا يشب عليه الصغير ولا يشد عنه الكبير ، فيكون عاما كما يرى مستعملو التعبير الشعبي ، وهم لا يولون أي اهتمام للحركات الإعرابية ، إن الإهمال لهذه الحركات بدل استعمالها لا يفسد معناها وأن كل أبناء العربية يفهمون من قولنا : الأب مسافر ، والأم مريضه ، بالتسكين ، دون حاجة إلى قواعد الإعراب وغالبية الكلمات تنطق أواخرها ساكنة .

قد تثير صيغة الجمع في الاستعمال العامي جدلا وتحدث التباسا على المستوى المرفولوجي ، فظاهرة تطابق الفعل والفاعل من مؤشرات الجملة العربية حين يتصدرها الفعل ، فهو يطابق الفاعل جنسا وعددا إذا تقدم الفاعل عليه ، وإن لم يتقدمه فلا يطابقه في العدد . إذ لو قلنا مثلا : (دخلوا لولاد) وكنت تقصد اثنين أو ثلاثة لاستعملت نفس الصيغة ، وبذلك فالتعبير العامي لا يعترف بصيغة التثنية كما هو الشأن بالنسبة للفصحى .

وهذا يجرنا إلى الاستعمال الصري في لغات غربية كالفرنسية مثلا التي لا تعترف بصيغة التثنية . هذا من جهة أما من جهة ثانية فعملية التأليف والتصريف تنظمها ضوابط تختلف في اللغة الواحدة ، وتختلف من لغة إلى أخرى . وهذه التغيرات التي تحدث في اللغة الواحدة أو في اللغات المختلفة ليست اعتباطية أو غير محددة بل هناك ما يدل على وجود قيود على رتب المكونات الكبرى داخل المكونات (من فعل وفاعل ومفعول به)

وإذا أردنا اليوم أن نفهم الظواهر الإعرابية والتركيبية فإننا نجدها أبرز ما تكون ماثلة وحية في العامية العربية المحكية إلى جانب وجودها ماثلة في العربية القديمة قبل ظهور الإسلام . فيفضل انتشار المدارس وتطور الثقافات الرسمية في مختلف الأماكن بدأت تلك الظواهر تختفي تدريجيا من اللغة المحكية في الوطن العربي وتتقرب من اللغة الرسمية .

فالعربية التاريخية القديمة كانت أشبه بما آلت إليه مثل هذه العاميات التي أضحت تنافس
الرسميات في محاولة منها لتتخذ لنفسها قواعد وقوانين مستقلة .

مصادر ومراجع البحث

1. نظريات اللغة والجمال د/ سلوم تامر ص 50
2. عالم المعرفة : الحصيلة اللغوية العدد رقم 212 ص 40
3. فقه اللغة في الكتب العربية د/ الراجحي ص 101، 105
4. الفصحى والعامية د/ عبد الله عطويات ص 13
5. دراسات في اللغة واللهجات د/ رمضان عبدالنواب ص 2
6. عالم المعرفة : الحصيلة اللغوية العدد رقم ص 40
7. الخصائص لأبن جني ج/ ص 241
8. التحفة البهية والتحفة الشهية ص 49
9. دلائل الإعجاز في علم المعاني للجرجاني ص 273
10. إعراب الجمل وأشباه الجمل لفخر الدين قباوة ص 31
11. المرجع نفسه ص 34
12. أصول النحو العربي، د/ محمد خير الخلواني ص 26
13. ظاهراً لإعراب في النحو العربي أحمد سليمان ياقوت ص 16
14. المرجع نفسه ص 17
15. مراقب النحويين ص 10
16. ظاهرة الإعراب في النحو العربي ص 53
17. المحكم في نقط المصحف ص 07
18. تاريخ الأدب وحياة اللغة ص ج 2/ 68
19. المدارس النحوية ص 16

-
20. المرجع السابق ص 49
21. مفاتيح العلوم للخوارزمي ص 44
22. الإيضاح في علل النحو للزجاجي ص 93
23. المرجع السابق ص 44
24. فقه اللغة في الكتب العربية د/ عبده الراجحي ص 105
25. الصاحبي في فقه اللغة . لابن فارس ص 52
26. دراسات في فقه اللغة ، لصبحي صالح ص 36
27. الخصائص ج 1/ 36
28. علم اللغة د/ محمود جاد العرب ص 245
29. المرجع السابق ص 29
30. دلائل الإعجاز في علم المعاني ص 25
31. المدارس النحوية ص 13
32. المرجع نفسه ص 273
33. مغني اللبيب في كتب الأعراب لابن هشام ص 243
34. المرجع نفسه ص 118
35. اللسانيات واللغة العربية . د/ عبدالقادر الفهري ص 103